

المحاضرة الثالثة

مقاومة الغزو الإيطالي لليبيا:

أولاً- مقاومة الغزو الإيطالي قبل انسحاب الأتراك:

تمكن الإيطاليون في غضون فترة وجيزة من السيطرة على المدن الساحلية الكبرى في ليبيا رغم المعارك الضاربة ضدهم منذ بداية الاحتلال, كمعركتي الهاني في 1911/10/26م, وعين زارة في 1911/12/08م, وأدى هذا إلى الاتصالات المباشرة بين إستانبول وطرابلس الغرب, الأمر الذي أضطر المقاتلين العثمانيين من أن يسلكوا طرقاً سرية عبر مصر- تونس للوصول إلى تونس, ورغم الجهود التي كانت تقوم بها السلطات البريطانية في مصر, والسلطات الفرنسية في تونس, ونشاط الأسطول الإيطالي في البحر, فإن شيئاً لم يمنع من الوصول للإمدادات والضباط إلى قوات المجاهدين في طرابلس وبرقة.

كما كان الشعور الإسلامي والعربي دافعين قويين جعلوا من أبناء المشرق يكونون جمعيات ولجان لجمع التبرعات اللازمة للمشاركة في نفقات هذه الحرب إلى جانب إخوانهم الليبيين, وكانت كل من مصر وتونس من أسبق من قدم الدعم والمعونة لبرقة وطرابلس, وفي مصر تشكلت في 14 أكتوبر 1911م اللجنة العليا برئاسة عمر طوسون لجمع التبرعات والإمدادات وإرسالها للمجاهدين الليبيين, وكانت القوافل تصل إليهم من تونس محملة بالمواد الغذائية والأغنام. كما عملت الجمعيات الخيرية مثل جمعية الهلال الأحمر المصري برئاسة الشيخ علي يوسف على إمداد المقاتلين بالأدوية والإسعافات الطبية التي يتم جمعها من مصر والبلاد العربية, وإنشاء عدة مستشفيات ميدان وتوالت بعوثها الطبية إلى ليبيا.

كانت حكومة الاتحاديين خلال الأيام الأولى للحرب غير جادة ويائسة من مقاومة الإيطاليين في ليبيا, وكانت الحكومة التركية مستعدة لتقديم أي تنازلات لإيطاليا, بل وللاعتراف باحتلال إيطالي مؤقت لليبيا, كما أن البعض من الإتحاديين قاموا بتحريض الحكومة على سحب الأسلحة والذخيرة من الولاية, وإرسال جزء من القوات المرابطة فيها على اليمن, وكذلك تزودهم إيطاليا بالمعلومات عن الدولة

محاضرات في: تاريخ ليبيا المعاصرة..... د/ بوجلال مسعودة.

العثمانية وولاية طرابلس الغرب, ويبدو أن بعض هؤلاء الإتحاديين قد وقعوا تحت التأثير الخارجي, وتسلموا رشاًوى من جهات أجنبية بصورة مباشرة أو غير مباشرة لقاء تسليمهم الولاية للإيطاليين, إذ كانوا يرون عدم جدوى المقاومة, لذا يمكن القول أن أكثر الضباط والجنود العثمانيين الذين ساهموا في المقاومة, اشتركوا بدافع من الروح الإسلامية والكرامة العسكرية, لتحقيق "مهمة ثقيلة عاطلة عن الشكر لتنظيم حرب محدودة من أجل أداء الواجب الخُلقي أمام وجه العالم الإسلامي".

إزاء الموقف غير الجاد لحكومة الإتحاديين من الغزو الإيطالي, قدم نائبان عن طرابلس الغرب, وهما محمود ناجي بك, وصادق بك بلحاج تقريراً إلى مجلس المبعوثان أهما فيه الحكومة العثمانية بالإهمال والتقصير في مسألة الدفاع عن ليبيا, في حين سعى النواب الإتحاديون إلى التنصل من مسؤولية عدم توفير مستلزمات الدفاع عن الولاية بشتى الحجج, فقد عارضوا المقترحات والمناقشات التي تصدى لها النواب العرب, وبشكل خاص, نواب ولاية طرابلس الغرب, وكذلك حاولوا باستمرار صرف النظر عن موضوع الغزو الإيطالي, و"علينا أن نشير بكثير من الأسى إلى أن الحكومة المركزية لم تقم خلال كل هذه المدة الطويلة بتأمين حتى ما هو ضروري للعمليات الحربية ... وقد أجبرنا انعدام الذخائر والسلاح على الانتقال من الهجوم والاجتياح إلى الدفاع".

وبالرغم من الموقف المتخاذل لحكومة الإتحاديين في مواجهة العدوان, إلا أنه لا يمكن نكران جهود الدولة العثمانية في سبيل مساعدة الليبيين, فقد أرسلت بعض الضباط للإشراف على القتال وقيادته, كان من أبرزهم أنور باشا, وعبد العزيز علي بك المصري, ومصطفى كمال (أتاتورك فيما بعد), وجعلت القيادة لأنور باشا, وقسمت الجبهة إلى ثلاث مناطق: الأولى في بنغازي بقيادة عزيز علي بك المصري, والثانية في درنة بقيادة مصطفى كمال, والثالثة في طبرق بقيادة ناظم بك, ومنذ أن وصل أنور باشا إل ليبيا, أخذ يتصل برؤساء الزوايا السنوسية, وزعماء القبائل, وشرع في ترتيب المعسكرات تحت إشراف قادة المناطق, وقد اتصل بأحمد الشريف السنوسي في واحة الكفرة, راجياً منه أن يوزع منشوراً على أتباعه يحثهم فيه على الجهاد, وفعلاً قام أحمد الشريف في ديسمبر 1911م بإصدار خطاب حث فيه الطرابلسيين والبرقاويين على الجهاد ضد العدو.

لقد بذل أنور بك تحت راية الدولة العثمانية جهداً عسكرياً, وأخلص في حربه ضد إيطاليا فكان محل تقدير وإعجاب, كما أدرك أن جموع المتطوعين والمتحمسين إلى القتال كانوا بحاجة إلى تدريب, فلم

محاضرات في: تاريخ ليبيا المعاصرة..... د/ بوجلال مسعودة.

يدخر جهداً في هذا السبيل, وفضلاً عن إجراء تدريب سريع لهم في برقة فقد أرسل قرابة لأربعمائة شاب برقواوي إلى تركية ليتدربوا فيها, لكن الكثير منهم لم يكتب لهم الوصول إليها, وقد قدر عدد العرب الذين شاركوا في المعارك الأولى نحو 15 ألف.

ثانياً- المقاومة المسلحة وردود الفعل الأولية:

1- المقاومة العثمانية الرسمية:

ظهرت مقاومة مسلحة في المدن الساحلية الليبية ابتداء من 4 أكتوبر 1911م، وأصدر الأمير فارافيللي أول منشور عسكري على أهالي طرابلس أعلن فيه استيلاءه على المدينة يوم 5 أكتوبر 1911م، ووعد الليبيين بأنه ستكون لهم حياة هادئة وهانئة في ظل الحكم الملكي الإيطالي الجديد، وفي 10 أكتوبر أقيم حفل لتنصيب الحاكم الجديد، وأرغم أعيان ليبيا على الحضور، وقد استغل مجموعة من المقاومين (الأترك) ذلك وتسللوا إلى معسكر الإيطاليين بهدف قطع مياه الشرب عن المدينة، وعرف هذا بهجوم أبي مليانة الليلي، ولكن الإيطاليين تصدوا للعملية، وبعد اصدار ذلك المنشور من طرف الحاكم العام قابله المجاهدون الليبيون بالمقاومة كرد على ذلك مصرين على الرفض التام والمطلق فيما يخص التدخل الأجنبي المسيحي في ليبيا.

حاولت إيطاليا أن تعطي أهمية كبيرة لطبرق بهدف تأمين الحدود الشرقية خوفاً من دخول مجاهدين من مصر إلى ليبيا، ووقعت في أيديها دون مقاومة بقيادة الجنرال أوبري في 04 أكتوبر 1911م، وقد ازدادت حدة المواجهات وصولاً على 12 أكتوبر 1912م، واعتمدت إيطاليا في ذلك على القوة من جهة وعلى الدعاية من جهة أخرى فقالت بأن تواجدها ليس استعماراً وإنما هو حماية للإسلام، فكتب قادة الاحتلال منشورات باللغة العربية فيها آيات قرآنية تدعو إلى الإسلام، مبينين أن العثمانيين هم احتلال وأننا جئنا إلى تحريركم من الاستبعاد، وكان ذلك يهدف إلى استمالة المجاهدين لكي يضعوا أسلحتهم، وقد أكدت تقارير بريطانية وإيطالية أن المجاهدين والسكان المحليين رفضوا وقاوموا بشدة، ففي 14 أكتوبر 1911م أراد رجال المقاومة أن يقطعوا موارد الماء على بومليانة عن العدو لكنهم فشلوا أيضاً، ولعل عرب برقة كانوا أكثر قوة، وقد كانوا يعتقدون بأن إيطاليا لن تستطيع المقاومة لأن النفقات الكثيرة على الحرب ستجعلها تتخلى عن برقة، خاصة لما كان البرقاويين متصلين أكثر بمصر ويكونون عداوة شديدة للإيطاليين، وحسب تصريح القنصل البريطاني فلقد اعتبر البرقاويون أنه في حال

محاضرات في: تاريخ ليبيا المعاصرة..... د/ بوجلال مسعودة.

أبرم السلطان العثماني الصلح مع إيطاليا على أساس التنازل لها عن برقة، فإن عرب برقة سيعتبرون الترك خونة لهم ولن يسمحوا أبدا للجنود النظاميين من الترك بمغادرة الإقليم.

2- التوسع الإيطالي عبر السواحل الليبية:

احتلت طرابلس في 20 أكتوبر 1911م بصفة نهائية بعد معارك قوية استدعت تدخل الأسطول البحري، أما بنغازي فقد حاصرتها 30 سفينة وطلبت من قائد الحامية العثمانية تسليمها، فعندما رفض تم قصفها وانسحب المجاهدون منها، كما قام الإيطاليون بقطع الاتصالات البرقية بين ليبيا والدولة العثمانية، أما مدينة الخمس الواقعة غربي طرابلس الغرب فقد داهمها الإيطاليون أيضا واستمر القتال فيها بضعة أيام استطاعت فيها القوات المدفعية التركية والعربية خلالها ارغام القوات الإيطالية على العودة إلى السفن من جديد، فكانت هذه أول هزيمة حقيقية تلحق بالجيش الإيطالي في عملية الغزو، وقد استمرت المدفعية بالقصف حتى احتلت الخمس يوم 21 أكتوبر 1911م.

استمرت المعارك فترات طويلة، فكان أمام الإيطاليين عقبة السيطرة على السواحل الليبية في البداية والتي تقارب 1900 كلم من حدود تونس الى حدود مصر، فبعد اقتحام السواحل صُعِب على الإيطالي التقدم إلى الدواخل لشراسة المقاومة فيها من جهة وإتْهاك وتفريق القوات الإيطالية من جهة أخرى، ولكن مع هذا ستلجأ الدولة العثمانية إلى الصلح والتسوية حول طرابلس للحفاظ على صورتها أمام العرب والمسلمين خاصة وأن الضغوطات الأوروبية كانت تزداد على العثمانيين، وبذلك استطاعت إيطاليا أن تصدر مرسوما في 5 نوفمبر 1911م يقضي بضم برقة وطرابلس إلى إيطاليا.

3- بعض المواقف العربية والإسلامية الأولى من احتلال ليبيا:

تفاوتت مظاهر تأييد ليبيا من مادية إلى معنوية، فغالبية الدول الإسلامية كانت وقتها ترزح تحت الاستعمار، فقد صرح إمام اليمن حميد الدين بأنه مستعد إلى أن يرسل 10 آلاف جندي إلى الدولة العثمانية وإجراء الصلح معها لمقاومة الغزاة الايطاليين، كما صرح عبد العزيز آل سعود أمير نجد وأخبر السلطان أن كل القبائل جاهزة للنجدة والزحف تحت ظل الأعلام العثمانية المقاومة، وقد وقعت مظاهرات في عدة بلدان عربية وإسلامية ووصل صداها إلى الهند والصين، وقدر عدد المتطوعين من البلاد الإسلامية عام 1912 بـ 16000 ألف مقاتل، كما عقدت لجان لجمع التبرعات لليبيا من أجل

محاضرات في: تاريخ ليبيا المعاصرة..... د/ بوجلال مسعودة.

شراء الأسلحة والأدوية والمؤونة والاسعافات وارسالها إلى ليبيا، ولعل الدعم الشعبي المصري كان أوفر وقتها بحكم التجاور، فقد تأسست في 14 أكتوبر 1911م اللجنة العليا لمساعدة مجاهدي ليبيا برئاسة الأمير عمر طوسون (مصر)، كما أقيمت في جانفي 1912 سوق خيرية في حديقة الأزبكية لجمع التبرعات لجمعية الهلال الأحمر، هذا ونشير إلى أن الحكومة البريطانية كانت قد أقامت عديد الإجراءات لمنع وصول الدعم المصري إلى ليبيا.

وحتى الجزائريون آنذاك أبدوا تأسفهم لما يحدث من انتهاكات في ليبيا وقد عبر عن ذلك المناضلان عمر بن قدور وعمر راسم في كثير المقالات التي كتبوها في جرائد الفاروق وذو الفقار وصدى وهران وغيرها، فقد كتب عمر بن قدور مقالا بعنوان "ليتقوا الله في طرابلس" ونشره في جريدة الحضارة الصادرة باستنبول (ع 132) حيث كتب يقول: "ضياح طرابلس الغرب يؤدي إلى ضياح الشرق، وتصبح الأبعاد الإسلامية منصرفة عن مركز الخلافة".

كما تسلل عدة مجاهدين من تونس التي كانت تعرف الحماية الفرنسية، ومن الشرق الجزائري كوادي سوف وشاركوا في المقاومة خاصة في الجهة الغربية.

ثالثاً: معاهدة أوشي لوزان ونهاية الدور الرسمي للدولة العثمانية في ليبيا:

لقد كانت الدولة العثمانية في حال تمنعها من الاستمرار في حوض غمار الحرب مع إيطاليا، فاضطرت إلى الانسحاب من الميدان مكروهة وذلك بسبب الأزمات الاقتصادية والمالية التي ضاعفتها نتائج الحرب الطرابلسية- الإيطالية، زيادة على الديون التي كانت تترجح تحتها الدولة، وللتخلص من تكاليف هذه الحرب راح الإتحاديون يبحثون عن صلح مع إيطاليا، ضمن شروط ترضى بها إيطاليا وتحفظ للدولة العثمانية مكانتها في العالمين الإسلامي والعربي، وللوصول إلى حل يحفظ لها ماء وجهها، خاصة أمام إصرار إيطاليا على إلحاق طرابلس الغرب مع استعدادها لدفع التعويضات لتركيا ولكن دون حتى الاعتراف للسلطان بسيادته الإسمية.

وأمام المقاومة العنيفة التي لاقتها القوات الإيطالية في طرابلس وبرقة، وأمام عجزها عن احتلال بقية الولاية قامت بمحاولات لتوسط بعض الدول الأوروبية لإنهاء الحرب، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل، فأقدمت على محاولة توسيع نطاق الحرب خارج ليبيا؛ كي تجبر الدولة العثمانية على الاعتراف

محاضرات في: تاريخ ليبيا المعاصرة..... د/ بوجلال مسعودة.

باحتمالها لليبيا وترغمها على عقد صلح يتفق وشروطها فاحتلت إيطاليا بالتحرك صوب المضائق العثمانية جزر الدوديكانيز في بحر إيجه، جزيرة رودس، والجزر الأخرى القريبة من الأناضول، وهددت مضيق البوسفور والدرديل، هذا ما دفع بالدول الأوروبية خاصة بعد غلق المضائق لضغط على الدولة العثمانية لإقناعها بأن تقبل مبدأ التفاهم والتساهل، عندما رأت مصالحها التجارية مهددة فاضطر العثمانيون لفتح المضائق جزئياً في وجه الدول غير العدو.

ظلت الحكومة العثمانية مترددة إلى أن لاحظت بوادر اتفاق الدول البلقانية، فقد هدد البلغار واليونان والصرب والجبل الأسود بإعلان الحرب ضدّ العثمانيين، فاضطر المندوبون العثمانيون إلى قبول الشروط الإيطالية، وأمضيت معاهدة الصلح في "أوشي" قرب لوزان بسويسرا في 18 أكتوبر 1912م بحضور كل من فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وألمانيا.

وقد تعهدت الحكومتان بموجب هذا الصلح على:

- 1- ضمان تعويضات للحكومة العثمانية.
- 2- إيقاف الحرب بين الطرفين في ولاية طرابلس وبرقة وسحب الجنود والضباط والموظفين الملكيين لكلا الحكومتين العثمانية والإيطالية، الأولى من طرابلس وبرقة والثانية من الجزر التي احتلتها في بحر إيجه.
- 3- تنازل السلطان العثماني (محمد الخامس) عن حقوقه في ولاية طرابلس وبرقة للأهالي ومنحهم حرية الاختيار (الاستقلال) بفرمان سلطاني.
- 4- يتم تبادل أسرى الحرب بين الدولتين في أسرع وقت ممكن.
- 5- تتعهد الحكومتان بمنح عفو شامل لكل من ساهم بأعمال عدائية أو حامت حوله الشبهات أثناء الحرب لصالح أي من الدولتين.
- 6- إلتزام الحكومتين بجميع المعاهدات والاتفاقيات التي كانت بينهما قبل الحرب، والعودة بعلاقتهما إلى وضعها السابق.
- 7- تلتزم الحكومة الإيطالية بما تفرضه الدولة التركية من زيادة في الجمارك وما تقيمه من امتيازات في إطار القانون التجاري الذي تلتزم به جميع الدول الأوروبية إتجاه الدولة العثمانية.

محاضرات في: تاريخ ليبيا المعاصرة..... د/ بوجلال مسعودة.

8- تؤيد الحكومة الإيطالية الدولة العثمانية في مطالبتها بإلغاء نظام الامتيازات القنصلية واستبداله بنظام القانون الدولي.

9- تتعهد الحكومة الإيطالية بإلغاء مكاتب بريدها في الدولة العثمانية حالما تلغي الدول التي لها مثل هذه المكاتب في أرض الدولة العثمانية, مكاتبها.

10- تتعهد الحكومة الإيطالية بدفع قسط سنوي للدولة العثمانية ولصندوق الدين العثماني يعادل المبلغ المستوجب عن إيرادات الولاياتين (طرابلس الغرب وبنغازي) لكل سنة من السنوات الثلاث التي سبقت الحرب, والذي لا يقل عن 2 مليون ليرة إيطالية لكل سنة.

وبعد عقد صلح أوشي لوزان أعلنت إيطاليا سيطرتها على البلاد الليبية بموجب مرسوم ملكي يؤكد على المراسيم والقوانين السابقة (1911/11/05م و 1912/02/25م), وينص على منح العفو العام عن جميع أهالي طرابلس الغرب وبنغازي ويكفل لهم حرية شعائرهم الدينية الإسلامية, ويسمح بذكر اسم السلطان في الصلوات العامة بصفته خليفة للمسلمين مع ضمان حصانة الممتلكات الدينية (الأوقاف), وعلى إثر توقيع هذا الصلح استدعت الحكومة العثمانية بالأستانة أنور بك (باشا) لمغادرة ليبيا, والذي رأى أنه من واجبه قبل المغادرة أن يتوجه إلى زيارة أحمد الشريف, وإبلاغه عزم السلطات العثمانية الانسحاب من ليبيا, وبأنه سيترك القيادة للضابط العربي عزيز علي المصري, ورغبة السلطان منحه أمر البلاد واستقلالها تاركاً لأهلها حق تقرير مصيرهم والدفاع عن بلادهم.

وعلى إثر هذا أصدر السلطان محمد رشاد (1908 - 1918م) فرماناً يقضي فيه بمنح ولايتي طرابلس وبنغازي استقلالاً ذاتياً في 16 أكتوبر 1912م - أي قبل يومين من توقيع معاهدة أوشي لوزان - جاء فيه: "إن حكومتنا العالية عاجزة عن تأمين الحماية لبلادكم, إلا أنها مهتمة بازدهاركم في الحاضر والمستقبل. ورغبة منها في تجنب مواصلة الحرب التي تحمل الهلاك لكم ولأسركم والخطر على الدولة, وحرصاً منها على السلام والرفاهية في بلادكم, فإنني أعطيكم الاستقلال الكامل والشامل...". وقد اعتبرت هذه الحادثة بدءاً لاستقلال الإمارة السنوسية, وتأسيس حكومة شرعية في البلاد لتسد الفراغ الذي ترتب عن الانسحاب العثماني, ومما يؤيد هذه أن الوثائق التي صدرت من مركز الجمعية السنوسية "بالجغبوب" بعد هذه الحادثة أصبحت تحمل ختم "الحكومة السنوسية" وباسم هذه الدولة صارت تخوض حرب المقاومة ضد إيطاليا.

محاضرات في: تاريخ ليبيا المعاصرة..... د/ بوجلال مسعودة.

كان موقف الأهالي وأحمد الشريف السنوسي واضحاً من الصلح بين لإيطاليا والدولة العثمانية, واعتبروا أن هذه الأخيرة قد تخلت عنهم, فقرروا الاعتماد على أنفسهم في الدفاع عن أنفسهم وبلادهم, فقد بعث أحمد الشريف السنوسي إلى أنور باشا رسالة يذكر فيها ما وصله من أن الدولة العثمانية تعترم إعطاء ليبيا إلى إيطاليا, جاء فيها: "نحن والصلح على طرفي نقيض, ولا نقبل صلحاً بوجه من الوجوه؛ إذا كان ثمن الصلح تسليم البلاد إلى العدو", ونتيجة لهذه الأحداث أعلنت الحركة السنوسية الجهاد الإسلامي ضد الغزو الإيطالي دون مساعدة عثمانية.

وأصدرت القيادة العسكرية في ليبيا, بعد إعلان الانسحاب بياناً تحوّلت فيه الضباط والجنود العثمانيين في الرحيل أو البقاء, وعدّ طرابلس أرض جهاد, ولكل شخص حق الدفاع عنها, لذا فقد آثر العديد منهم البقاء بقيادة عزيز علي بك المصري, ومن ثمة الانضمام إلى حركة المقاومة الليبية, لكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً حيث أمرت الدولة العثمانية الضابط علي بك المصري في جويلية 1913م بالانسحاب الفوري بجميع الجنود والضباط من ليبيا مع الأسلحة والذخيرة نحو الحدود المصرية, وبذلك تكون الدولة العثمانية قد قطعت رسمياً جميع صلاتها بليبيا.

كان لصلح "أوشي لوزان" أثره السيء في نفوس العرب في طرابلس؛ لأنه جرى دون علمهم ورأيهم, كما حرمهم من مساعدة الجنود الأتراك الذين فقدوا فيهم الكفاءة والخبرة العسكرية اللازمة, بالرغم من أن عددهم لم يتجاوز 1500 شخصاً. كما حرم الليبيون من المساعدات المالية التي كانت تتلقاها الولاية من الدولة العثمانية والتي كانت تصل إلى مائة ألف جنيهاً في الشهر, ومن شحنات الأسلحة التي كانت ترسلها الدولة عن طريق البحر, كما كان لهذا الصلح أثره السيء على العلاقات العربية- التركية.